المحاضرة الثانية عشر:نظريّة الخلق

1. مدخل عامّ إلى نظريّة الخلق:

تربط بين نظرية الخلق ونظرية التعبير صلات قويّة؛ كونهما نتاجٌ للطبقة نفسها ألا وهي البرجوازية، لكن الفرق بينهما أنّ نظرية التعبير تشكلت مع أوجّ ازدهاره البرجوازية، أمّا نظرية الخلق فكانت مع زمن أفولها وأزمتها الفكرية، إذ تحوّلت البرجوازية في نهاية القرن التاسع عشر من طابعها الثوري والحيوي إلى الاحتكار والمحافظة والرجعيّة، وتجلى ذلك في أعمالها الفكريّة والأدبيّة[1]، فقد تراجعت قيمة أعمالها الفنيّة، وصارت تعبيراً عن أزمة الإنسان الغربي، وعليه فنظرية الخلق هي تعبيرٌ عن البرجوازيّة في زمن أفولها وأزمتها الفكريّة والروحيّة.

ظهرت هذه النظرية أواخر القرن التاسع عشر وهي الفترة التي ارتبطت بالانحطاط السياسي والركود الأدبي والفكري وحتى الاقتصادي، وقد جاءت هذه النظرية كرد فعل على الوضع المتردي الذي آل إليه الأدب حيث تحوّل إلى سلعة في خدمة المنافع، ما جعل أنصار هذه النظرية ينادون بالفن الخالص والحقيقي الذي لا يرتبط بالمنفعة ولا يتعلّق بأيّ شيء خارجي مثل: المجتمع والعلم والدين.

تدعو هذه النظرية للعودة بالفن إلى مكانته السامية والنأي به عن الأغراض النفعيّة وللأدب حسب نظرية الخلق أربعة معانٍ:

- الأدب كتسلية خالصة.
- الأدب كتقنية وهذه التقنية هي وسيلة الخلق.

[1]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ط03، دار العودة، بيروت، 1983، ص199.

- الفن للفن والشعر للشعر.
- العمل الأدبي كائن خلقه الأديب.

دعا رواد هذه النظرية إلى تجاوز الفلسفة الرومانسيّة، و"هَدَمَ النقاد النظريون منهم (نظريّة التعبير) الرومانسيّة، ودعوا إلى (فنّ موضوعي) يتجاوز أوهام الرومانسيين إلى (نقد علمي) مُؤسس على تقدم العلوم"[1]، وعبّرت هذه الفلسفة عن خيبة أمل كبيرة من فساد طبع الإنسان وأنانيته، وفقدان بذرة الخير فيه وسعيه الدائم لإشباع شهواته ومصالحه على حساب الغير.

استثمر رواد هذه النظريّة بعض مكتسبات العلوم الأخرى في دراسة الفنون والأدب بصفة خاصة "واستعانوا فعلا بالعلم في دراسة التجربة الجماليّة والطبيعة الشعريّة إبداعاً وتذوقاً، وخلّصوا إلى نتائج طيّبة في درس دور اللّغة في العمل الشعريّ، ومنزلة الاستعارة في التعبير، وعلاقة الأسطورة والرمز، والشعيرة البدائيّة والموروث الشعبيّ بالتجارب والأشكال الفنيّة"[2].

2. أسسها الفكرية والفلسفيّة:

الفلسفة المثالية الذاتية لـ كانط: تستند نظرية الخلق إلى الفلسفة المثالية المغرقة في الذاتية، حيث كان **كانط** وصل إلى نموذج متطرف من المثالية الذاتية إلى حدّ الفصل بين الجميل والمفيد ورفض الفن إذا ارتبط بأيّة منفعة أو فائدة[3]، مع العلم أنّ **كانط** في تنظيره لنظرية التعبير لم يكن قد وصل إلى ذلك الحدّ من المثالية.

---

[1]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص200.

[2]. المرجع نفسه، ص200.

[3]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ط01، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص68/67.

يَعْتَبر كانط العمل الأدبي وحدة جوهرية له بنية ذاتية وما يجعل منه عملاً فنياً هو البنية، ويرى أنّ لكلّ شيء غاية ما عدى الجمال الذي يجعلنا نشعر بمتعة تكفينا عن السؤال عن الغاية.

يصدر الحُكم النقديّ حسب **كانط** عن الذوق الذي ينبغي أن يكون ذاتياً، وأوّل من قال بفكرة الفن للفن في هذا السياق الأديب الفرنسي **شارل بودلير (Baudelaire Charles)**[1] حيث يرى أنّ موضوع الشعر هو الشعر نفسه، وأنّ الشعر العظيم الذي يستحق اسم شعر هو ذلك الذي يُنظم لمجرّد المتعة.

آراء و أفكار كولردج: "عمل **كولردج** في نظرية الأدب، وعمل **بنتام** في نظرية الأخلاق كانا صياغة متقدمة للمثل العليا التي كانت البرجوازية الأوروبيّة تسعى إلى تأصيلها في مدها التقدمي، حيث كان الإعلاء من شأن الفرد والفردية في الفن، والذاتية في الأخلاق، قيمة تاريخيّة. وكان هيغل الذي عاصر **كولردج** و**بنتام** تعبيراً فلسفياً رفيعاً عن نهاية المثاليات البرجوازية في طورها المتقدم"[2].

مذهب المنفعة: خاصة آراء جيرمي **بنتام (Jeremy Bentham)**[3]، فآراء **ريتشاردز** فيما يخصّ مذهب القيمة تستند على أساس نظري هو مذهب المنفعة عند التجريبيين الانجليز و**بنتام**.

الفلسفة الوضعيّة: ترى هذه الفلسفة أنّ الأدب وضع أو خلق جديد لا علاقة له بالعالمين الداخلي أو الخارجي للأديب.

---

[1]. شارل بودلير: شاعر ومنظر وناقد فرنسي، ولد سنة 1821 وتوفي سنة 1867، عُرف بجرأته ورغبته الدائمة في التجريب والتجديد في الأدب، لديه مجموعة من الأعمال الرائدة في التجديد منها: ديوان أزهار الشّر، ديوان فراديس مصطنعة، ديوان كآبة باريس، إلى جانب أعمال نقدية وترجمات.

[2]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص106/105.

[3]. جيرمي بنتام: فيلسوف انجليزي، ولد سنة 1748 وتوفي سنة 1832، مؤسس مذهب المنفعة، أثّرت أفكاره على كثير من الباحثين في مختلف المجالات، نادى بالحرية وبالمساواة المطلقة، لديه مؤلفات في القانون والفلسفة والأخلاق منها: الأساس المنطقي للأدلة القضائيّة، جرائم ضد النفس، مدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع.

فلسفة هيغل. (تقديم شرح موجز للطلبة)

فلسفة شوبنهاور (1860/1788). (تقديم شرح موجز للطلبة)

آراء توماس إرنست هيوم (1917/1883). (تقديم شرح موجز للطلبة)

3. نظرية الخلق (المبادئ والآراء):

- **الشعروالحياة:** يرى **برادلي** أنّ الحياة تملك الحقيقة ولا ترضى الخيال أمّا الشعر فإنّه يرضى الخيال ولا يمتلك الحقيقة الكاملة لذا فالشعر ليس هو الحياة بل هما ظاهرتان متوازيتان لا تلتقيان، والتجربة الشعرية قيمتها في ذاتها والفن لا يوضع مقابلا للمنفعة[1].
- **الشعروالموضوع:** ليس للموضوع أهميّة بالنسبة لنظرية الخلق لأنّه لا يمنح العمل الأدبي أيّة قيمة إنّما قدرات الأديب الفنية ومدى سيطرته على التجربة وتمكنه من عناصر فنه[2].
- **الشعروالانفعالات:** ليس العمل الفني نتيجة للانفعالات فهناك قصائد تكتب في موضوع واحد وتجربة واحدة ومناسبة واحدة وتصدر عن عاطفة واحدة لكنها تتفاوت في جودتها ويرجع ذلك إلى قدرة الشاعر على الخلق الفني ومنه فالعواطف لا تؤثّر في القيمة الفنيّة للعمل[3]. و"الشعر يهدف إلى تحقيق التوازن النفسي لقارئه، وهنا قيمته التي ينهض بها بطريقة استخدامه للّغة التي تختلف عند **ريتشاردز** اختلافاً أصيلاً عن استخدام العلم لها. فالشعر لا (يُنبئُ) بالحقيقة منطقياً، إنّما يبعثُ حالات نفسيّة تُفضي إلى التوازن في الجهاز العصبي لقارئ"[4].

---

[1]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ص69.

[2]. ينظر المرجع نفسه، ص70.

[3]. ينظر المرجع نفسه، ص71/70.

[4]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص205.

- **اللّغة والخلق الفني:** العمل الأدبي كائن خلقه الشاعر من ذاته واللّغة مادته ووسيلته والذي يحدد قيمة العمل الأدبي هو العلاقة التي تنشأ بين اللّغة والتجربة الشعورية[1]. ويُؤكد **ريتشاردز** أنّ الجمال ليس كامناً متحققاً في القصيدة ذاتها، إنّما هو (حالة) عند القارئ"[2]، والتوصيل الجيّد هو الذي يدفع إلى التأثير.

- **العمل الأدبي خلق حرّ:** يرى **بينيدتو كروتشيه (Benedetto Croce)**[3] بأنّ الفن حدس خالص أو صورة خالصة متجرّدة من الفلسفة أو التاريخ أو العلم بل ومن الأخلاق وهي مستقلّة عن أية غاية؛ فالفن خلق حرّ[4]. أمّا **إليوت** فيعتبر أنّ الشعر خلق جديد يتميّز بقوانينه الخاصة وحقائقه الفريدة، وعليه فإنّ دراسته أو النظر إليه يجب أن تكون بمقاييسه[5].

- **المعادل الموضوعي:** "إنّ الشاعر ينفعل بموضوعه ويتعاطف معه، وعليه ألاَّ يُعبّر عن انفعاله، بل عليه أن يوجد لهذا الانفعال (معادلاً موضوعياً) يساويه ويوازيه ويُحدده. ويُعين الشاعر في ذلك عقله"[6]. وتكمن كفاءة الشاعر في قدرته على الفصل بين ذاته ومادته، فيكون عمله الشعريّ مستقل عن تجربته الشعوريّة.

---

[1]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ص71.

[2]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص203.

[3]. بينيدتو كروتشيه (Benedetto Croce): فيلسوف مثالي ومؤرخ إيطالي، ولد سنة 1866 وتوفي سنة 1952، لديه اهتمامات ومؤلفات في علوم مختلفة منها علم الجمال والفنون بما فيها الأدب، لديه مجموعة من الأعمال كان أكثرها تأثيرا كتاب فلسفة الروح.

[4]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ص72.

[5]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص201.

[6]. المرجع نفسه، ص200.